السّيرة النبوية

السيرة "هي الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد ﷺ، وأوّل ما استعملت للدلالة على هذا المعنى في مؤلف ابن هشام "هذا كتاب سيرة رسول الله"، وقد وردت بهذا المعنى أيضاً عند الواقدي وابن سعد حيث ورد قوله "هؤلاء أعلام بالسيرة والمغازي من غيرهم"(١).

بينما جونس يذكر أن لفظة "السيرة" وردت بمعنى سيرة النبي قبل استعمال ابن هشام لها عند المدائني على لسان الزهري الذي قال: قال لي خالد بن عبد الله القسريّ: أكتب لي النسب! فبدأت بنسب مضر وما أتممته، فقال: اقطعه! قطعه الله مع أصولهم، واكتب لي السيرة"!(٢)

وكلمة "السيرة" من الفعل "سار" "س ي ر" بمعنى عم، شاع "سار الشيء وهذا مثل سائر، والسيرة بمعنى الطريقة يُقال "سار بهم سيرة حسنة" وبمعنى "سلك" أي "ذهب في الأرض" (٣) وفي القرآن الكريم وردت في سورة طه آية ٢١ "قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى" بمعنى السنّة أو الهيئة.

وقد كانت كلمة "السّيَر" بالجمع هي الأكثر استعمالاً، وارتبطت الكلمتان "المغازي والسّيَر" مع بعضهما البعض، وكان يُراد بهما عند مؤرخي المسلمين تلك الصفحات الأولى من تاريخ

العرب والمسلمين، والحديث عن نشأة النبي وذكر آبائه وما سبق ذلك من أحداث لها صلة به(٤).

لم يكن "التاريخ" بمفهومه العلمي معروفاً عند العرب قبيل الإسلام، وإنّما كانت مادتهم التاريخية تعتمد على الرواية فيمايختص بأخبار الجاهلية الأولى وحديثهم عن آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وفي غير ذلك من الأخبار التي لها علاقة بحياتهم، وكانت الذاكرة تقوم مقام الكتاب، وتنقل الرواية من الأب لأبنائه وهكذا دواليك.

ومع بداية الإسلام وظهور الدعوة الإسلامية، أصبحت أحاديث الصحابة وغيرهم فيما له علاقة بحياة الرسول ﷺ وأعماله تُشكّل مادة مهمة لتثبيت الدعوة الجديدة ولتكون اللبنة الأولى في كتابة التاريخ عند العرب. وهذا ما دفع الدكتور لطفي منصور ليقرّر بأنّ مادّة المغازي والسير "كانت جزءاً من علم الحديث وأنّها نشأت أوّل ما نشأت في ظلاله، هي مجموعات الحديث التي وصلتنا، بنوعيها: المصنف والمسند. فإنّ هذه الكتب تحوي فصولاً طويلة وروايات كثيرة تُعالج موضوع السير والمغازي بجانب المواضيع الأخرى من أحكام وتفسير."(٥) ويرى أنّه كان لرواية أيام العرب والحكايات الشعبية في مجالس السمر، الأثر البالغ في صياغة أدب المغازي ورواية أخبار مغازي النبي كموضوع محبّب ومسلّ في مجالس أشراف المدينة.(٦)

لكن الأمر المعروف أن العرب لم يُدوّنوا في حياة الرسول والخلفاء الراشدين غير "القرآن الكريم" وذلك للحفاظ عليه من الضياع ولتفشي العُجمة على الألسن نتيجة لاتّساع البلاد الإسلامية واختلاط العرب بشعوب أخرى لا تُتقِن العربية.

وكان لاهتمام معاوية بن أبي سفيان بتدَوين التاريخ حيث استقدم عبيد بن شرية من صنعاء وكتب له "كتاب الملوك وأخبار الماضين"، أكبر الأثر على إثارة اهتمام الغير بتدوين القصص والأخبار والأحداث التي لها علاقة بالرسول(٧).

وقد اتجه اهتمام مدوّني التاريخ إلى حياة الرسول وكل ما له علاقة بها. ومن أشهر الذين كتبوا في سيرة الرسول نذكر: عروة بن الزبير بن العوام الذي ساعده كون والده الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر أن يروي الكثير من الأخبار والأحاديث عن الرسول وصدر الإسلام، وقد توفي سنة ٩٢هجرية.

كذلك نذكر ابان بن عثمان بن عفان المتوفي سنة ١٠٥ هجرية ووهب بن مُنبّه اليمني المتوفي سنة ١١٠هجرية صاحب كتاب "الإسرائيليات والذي قال عنه حاجي خليفة: "إنّ وهباً أوّل مَن ألّف في هذا الموضوع" (٨) وقد استقى مادته من كتب اليهود والنصارى وخاصة التوراة، ويرى Sezgin أنّ ابن هشام مهذّب السيرة قد اقتبس كثيرا من كتاب وهب بن منبه (٩)، وشرحبيل بن سعد المتوفي سنة ١٢٢هجرية، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى

بين سنتي ١١٩ و ١٢٩هجرية الذي اشتهر من بين علماء المدينة بلقب "صاحب السير والمغازي" ويُعتَبر من كبار شيوخ ابن اسحاق والواقدي وابن سعد (١٠) ، وابن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هجرية تلميذ عروة بن الزبير وشيخ إمام المغازي محمد بن اسحاق ، وقد اهتم الزهري في مغازيه بمراحل السيرة الثلاث : المبتدأ والمبعث والمغازي أي فترة المدينة، (١١). ويُشكّل مؤلّف الزهري الشريان الرئيسي الذي غذّى سيرة ابن اسحاق، وواحداً من مصادره الأساسية، ويبقى تأثيره واضحاً على جميع مؤلفي السير في القرون التي تلته. (١٢) وهو يُعتَبر أوّل رائد في كتابة الحديث حيث لم يكن رواة الحديث قد اعتادوا كتابة رواياتهم (١٣)، وموسى بن عقبة المتوفي سنة ١٤١هجرية، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم المتوفي سنة ١٣٥هجرية الذي وصفه الذهبي بأنّه "صاحب المغازي وشيخ ابن اسحاق" (١٤) وقد قام عبد الله بن أبي بكر بترتيب مغازي النبي وحروبه ترتيبا كرونولوجيا وذكر عددها وعمل منها قائمة، أفاد منها ابن اسحاق في كتابه "السيرة" (١٥) ، ومعمر بن راشد المتوفي سنة ١٥٠هجرية ثم شيخ رجال السّيرة محمد بن اسحق المتوفي حوالي سنة ١٥٢هجرية (١٦).

بعد هؤلاء الرّواد جاءت كوكبة أخرى من المُهتمّين بسيرة الرسول وتدوين التاريخ، أذكر منهم الواقدي صاحب كتاب "المغازي" والمتوفي سنة ٢٠٧هجرية، ومحمد بن سعد صاحب

كتاب "الطبقات الكبرى" والمتوفي سنة ٢٣٠هجرية، وابن هشام الذي ارتبطت سيرة الرسول باسمه والمتوفى سنة ٢١٨هجرية (١٧).

الدّافع لتدوين سيرة الرسول

كان من الطبيعي أن تُثير أفعال وأقوال الرسول ﷺ اهتمام الرجال الذين عاصروه، وأن يستذكروا كلّ ذلك ويُحفّظوه لأولادهم، وقد ساعدت هذه الأفعال والأقوال في تثبيت سنن العبادة والشريعة والإقتداء بالرسول، كما أنّ الحروبات التي خاضها المسلمون بقيادة الرسول وانتصروا فيها ونجحوا في نشر الإسلام وتثبيته حفّزت الكثيرين لرواية أخبار هذه الحروب والتوسّع في سرد بعض حوادثها مما يترك ظلاً كثيفاً من الشّك حول مصداقيّة بعض التفاصيل وترابطها الزمني.

وكان التحوّل الكبير الذي طرأ على شخصية الرسول لدى كل مسلم مؤمن، نتيجة للإحتكاك باليهود والمسيحيين، حيث أخذ هذا المسلم يرى في رسوله الصورة الظاهرة لكمال الخلق الالهي، ولا تختلف بشيء عن حياة موسى وعيسى، عليهما السلام، وهذا التحوّل استتبع أن توضَع القصص المختلفة حول حياة وشخصية الرسول وتتداخل التحريفات والمبالغات في الكثير من هذه القصص.

الشّكوك حول مصداقيّة السيرة

كان شبرنكر قد صرّح وادّعى، كغيره من المستشرقين،

بوجود شبهة في أن تكون السيرة قد تأثرت بالسنن اليهودية والمسيحية "اما بالنسج على منوال القصص الواردة في العهدين القديم والحديث أو بالنقل عن "المدراش" و "الهَجادة" من ناحية وعن "الأناجيل" المنحولة وسيَر القديسين عند المسيحيين من ناحية أخرى".

كذلك كان المستشرق نولدكه قد بين بتحليله قصص إسلام السابقين إلى الإسلام، أن السيرة في مواضع كثيرة جداً تنأى نأيا بعيداً عن تمثيل الرواية الصحيحة، وانما هي تُصوّر، متتبعة الأمور، أحوالاً وقعت في تاريخ متأخر كثيراً عن الحوادث التي تروى نبأها، وتقرن ذلك بأسانيد تاريخية تثبت بها ما تقول.

كذلك يرى جولدتسهير أن السيرة في صورتها الأدبية التي وصلت بها إلينا، إنما هي مجموعة من الأحاديث المروية لا تختلف في طريقة تكوينها اختلافاً جوهرياً عن الأحاديث المُسَلّم بصحتها، حيث أن الإسناد في الحالين لا يكون مقنعاً ودقيقاً ولهذا فيكون النص الوارد في الحالين يفتقد إلى حد ما للحقيقة التاريخية.

أما المستشرق لامنس H. Lamens فقد حاول إثبات أن البناء الكامل للرواية الإسلامية عن حياة النبي، في مرحلتها السابقة على الهجرة لا سَند له، فكل حادث ترويه السيرة وكل تفصيل تاريخي مزعوم ليس إلاّ نتيجة لتفسير ذاتي لآية من القرآن،

وأن أصحاب مدرسة المدينة استعانوا بشتى التوفيقات الفقهية وبالأصول الدخيلة، وعليه فلا تجد للحوادث التي رووها سَنَداً من الرواية التاريخية (١٨).

ويستخلص المستشرق ليفي دلا فيدا رأيه بأن السيرة المعروفة لدينا قد مرّت بالخطوات الآتية:

إنّ احترام المسلمين لشخص الرسول أدّى إلى تَعدّد الروايات حول شخصيته تُشبه سير القديسين عند المسيحيين، وقد اجتمعت حول هذه الرواية إلى جانب الروايات التاريخية التي يتفاوت حظها من التحريف، قصص نُسجت على منوال القصص الدينية اليهودية أو المسيحية وربّما الإيرانية، ثم رُتّبت هذه المادة واتّخذت لها القواعد والمناهج على يد مدارس المحدثين في المدينة، واتخذت صورة "مدراش" مُحكم حافل بالتوفيقات والآيات القرآنية التي طابَ للمفسرين أن يجدوا فيها إشارات إلى حوادث في حياة النبي، ويرى: أن على هذا النحو كانت صياغة تاريخ العهد المدني من السيرة، وأن البعض من أهل التقى التقطوا قصصاً تتصل بهذا العهد وبدّلوا من طبيعتها، ومن هذه التوفيقات بين تلك العناصر نشأت السيرة في صورتها المعتمدة قُبيل مستهل القرن الثاني للهجرة.

ويرى ليفي أنّ القصاصين المحترفين للقصص الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسلامي بعد الفتوح العربية هم أول من

ألف وأذاع عن حياة النبي القصص التي صنّفوها فيما يُرجّح على منوال تلك الأساطير الواردة في التوراة والإنجيل والقصص الإيرانية(١٩).